سورة الانشقاق

– مَكيّة–

عَنْ أَبِي رَافِعٍ قَالَ: صَلَّيْتُ مَعَ أَبِي هُرَيرة الْعَتَمَةَ فَقَرَأَ: " إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ " فَسَجَدَ، فَقُلْتُ لَهُ، قَالَ: سجدتُ خَلْفَ أَبِي الْقَاسِمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَا أَزَالُ أَسْجُدُ بِهَا حَتَّى أَلْقَاهُ . رواه البخاري ومسلم .

[مِنْ مَقَاصِدِ السُّورَةِ]

تصوير القيامة باستسلام الكون وخضوعه لربه في أمره، إلزامًا بالاستسلام، واستنكارًا للجحود.

[التَّفْسِيرُ]

١ – إذا السماء تَصَدَّعت لنزول الملائكة منها.

كقوله تعالى: {وإذا السماء فُرجت} [المرسلات: ٩] . وكقوله تعالى: {فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان. فبأي ألاء ربكما تكذبان. فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان} [الرحمن: ٣٩] . إذاً فانشقاقها يوم القيامة.

٢ – واستمعت لربها منقادة، وحُقَّ لها ذلك.

لأن الذي أمرها الله ربها خالقها عز وجل ، كما أنها سمعت وأطاعت في ابتداء خلقها، ففي ابتداء خلقها قال الله تبارك وتعالى: {ثم استوى إلى

السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين} [فصلت: ١١] .

٣ – وإذا الأرض مدّها الله كما يمدّ الأديم.

هذه الأرض التي نحن عليها الان هي غير ممدودة، أولاً: أنها كرة مدورة، وإن كانت جوانبها الشمالية والجنوبية منفتحة قليلاً . أي ممتدة قليلاً . فهي مدورة الآن، ثانياً: ثم هي أيضاً معرجة فيها المرتفع جداً، وفيها المنخفض، فيها الأودية، فيها السهول، فيها الرمال، فهي غير مستوية لكن يوم القيامة {وإذا الأرض مدت} أي تمد مدًّا واحداً كمد الأديم يعني كمد الجلد، كأنما تفرش جلداً أو سماطاً، تُمد حتى إن الذين عليها . وهم الخلائق . يُسمعهم الداعي، وينفذهم البصر، لكن الآن لا ينفذهم البصر، لو امتد الناس على الأرض لوجدت البعيدين منخفضين لا تراهم لكن يوم القيامة إذا مُدت صار أقصاهم مثل أدناهم كما جاء في الحديث: «يجمع الله تعالى يوم القيامة الأولين والآخرين في صعيد واحد، فيسمعهم الداعي، وينفُذُهم البصر» رواه البخاري ومسلم .

٤ – وألقت ما فيها من الكنوز والأموات، وتخلّت عنهم.

تلقي هذه الجثث فيخرجون من قبورهم لله عز وجل، كما بدأهم أول خلق، أي كما خرجوا من بطون أمهاتهم يخرجون من بطون الأرض، وأنت خرجت من بطن أمك حافياً، عارياً، أغرل إلا أن بعض الناس قد يخلق

مختوناً لكن عامة الناس يخرجون من بطون أمهاتهم غرلاً كذلك تخرج من بطن الأرض يوم القيامة حافياً ليس عليك نعال، عارياً ليس عليك كساء، أغرل لست مختوناً، ولما حدّث النبي عليه الصلاة والسلام بذلك قالت عائشة: يا رسول الله: الرجال والنساء جميعاً، ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال: «يا عائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض»

٥ – واستمعت لربها منقادة، وحُقَّ لها ذلك.

٦ – يا أيها الإنسان، إنك عامل إما خيرًا وإما شرًّا، فملاقيه يوم القيامة؛ ليجازيك الله عليه.

الكادح: هو الساعي بجد ونوع مشقة وقوله: {إلى ربك} يعني أنك تكدح كدحاً يوصلك إلى ربك، يعني أن منتهى كدحك مهما كنت ينتهي إلى الله، لأننا سنموت وإذا متنا رجعنا إلى الله عز وجل، فمهما عملت فإن المنتهى هو الله عز وجل {وأن إلى ربك المنتهى} [النجم: ٤٢] . ولهذا قال: {كادح إلى ربك كدحاً} حتى العاصي كادح كادحًا غايته الله عز وجل {إن إلينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم} .

{فملاقيه} الفاء يقول النحويون: إنها تدل على الترتيب والتعقيب، يعني، فأنت ملاقيه عن قرب {إن ما توعدون لآت} [الأنعام: ١٣٤] . وكل آت قريب {وما يدريك لعل الساعة قريب} [الشورى: ١٧] . وإذا شئت

أن يتبين لك أن ملاقاة الرب عز وجل قريبة فانظر ما مضى من عمرك الان، لو مضى لك مئة سنة كأنما هذه السنوات ساعة واحدة. كل الذي مضى من أعمارنا كأنه ساعة واحدة.

والذي أماته الله مئة عام ثم بعثه {قال كم لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يوم} (البقرة: ٢٥٩) . وأصحاب الكهف لبثوا في كهفهم ثلاث مئة سنين وتسع سنين، فلما بُعثوا قال بعضهم لبعض: كم لبثتم؟ قالوا: لبثنا يوماً أو بعض يوم، وهذا يدل على أن الإنسان يتعجب كيف تذهب السنوات على هؤلاء الأموات؟ نقول نعم، السنوات ما كأنها إلا دقيقة واحدة، لأن حال الإنسان بعد أن تفارق الروح بدنه سواء كانت مفارقة كلية أو جزئية غير حاله إذا كانت الروح في البدن، فإذا كانت الروح في البدن يعاني من المشقة والمشاكل والهواجيس والوساوس أشياء تطيل عليه الزمن، لكن في النوم يتقلص الزمن كثيراً، في الموت يتقلص أكثر وأكثر .

ولما ذكر عمل الإنسان مجملًا فصل حالِ العاملين يوم القيامة، فقال:

٧ – فأما من أُعْطِي صحيفة أعماله بيده اليمنى.

٨ – فسوف يحاسبه الله حسابًا سهلًا يعرض عليه عمله دون مؤاخذة به.

كما جاءت بذلك السنة: أن الله عز وجل يخلو بعبده المؤمن، ويقرره بذنوبه، فيقول: عملت كذا، عملت كذا، عملت كذا، ويقر بذلك ولا ينكر فيقول الله تعالى: «قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم»

وقد أخرج البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «ليس أحدٌ يحاسَبُ إلا هَلك»، فقلتُ: أليسَ يقولُ اللهُ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾؟ قال: «ليس ذلك بالحساب، ولكن ذلك العَرْضُ، ومن نُوقِشَ الحسابَ هَلَكَ».

٩ – ويرجع إلى أهله مسرورًا.

أي مسرور القلب، وقد أخبر النبي عليه الصلاة والسلام أن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر .

ثم هم بعد ذلك درجات، وهذا يدل على سرور القلب؛ لأن القلب إذا سُر استنار الوجه .

والانقلابُ: الرُّجوعُ إلى المكانِ الذي جيءَ منه.

١٠ – وأما من أعْطِي كتابه بشماله من وراء ظهره.

وفي الآية الأخرى في سورة الحاقة {وأما من أوتي كتابه بشماله} [الحاقة: ٢٥] .

يؤتى كتابه بالشمال، ولكن تلوى يده حتى تكون من وراء ظهره، إشارة إلى أنه نبذ كتاب الله وراء ظهره ولم يبال به، ولم يرفع به رأساً، ولم ير بمخالفته بأساً.

١١ – فسينادي بالهلاك على نفسه.

ولكن هذا لا ينفع في ذلك اليوم؛ لأنه انتهى وقت العمل، فوقت العمل هو في الدنيا، أما في الآخرة فلا عمل وإنما هو الجزاء .

١٢ – ويدخل نار جهنم يقاسي حرّها.

١٣ – إنه كان في الدنيا في أهله فرحًا بما هو عليه من الكفر والمعاصي.

ولكن هذا السرور أعقبه الندم والحزن الدائم المستمر، واربط بين قوله تعالى فيمن أوتي كتابه بيمينه {وينقلب إلى أهله مسروراً} ، وهذا {كان في أهله مسروراً} تجد فرقاً بين السرورين، فسرور الأول سرور دائم . نسأل الله أن يجعلنا منهم . وسرور الثاني سرور زائل .

١٤ – إنه ظن أنَّه لن يرجع إلى الحياة بعد موته.

١٥ – بلى، ليرجعنَّه الله إلى الحياة كما خلقه أول مرة، إن ربه كان بحاله بصيرًا لا يخفى عليه منه شيء، وسيجازيه على عمله.

١٦ – أقسم الله بالحُمْرة التي تكون في الأفق بعد غروب الشمس.

هذه الجملة مكونة من قسم، ومُقسم به، ومقسم عليه، ومُقسِم، فالقسم في قوله: {لا أقسم بالشفق} قد يظن الظان أن معنى {لا أقسم} نفي، وليس كذلك بل هو إثبات و {لا} هنا جيء بها للتنبيه، ولها نظائر مثل

{لا أقسم بهذا البلد} . {لا أقسم بيوم القيامة} . {فلا أقسم برب المشارق} . {فلا أقسم بما تبصرون} . وكلها يقول العلماء: إن (لا) فيها للتنبيه، وأن القسم مثبت، أما المقسِم فهو الله عز وجل أما المقسَم به في هذه الآية فهو الشفق وما عطف عليه.

فإن قال قائل: لماذا يقسم الله على خبره وهو سبحانه الصادق بلا قسم؟ وكذلك يقسم النبي صلى الله عليه وآله وسلم على خبره وهو صادق بلا قسم؟

قلنا: إن القسم يؤكد الكلام، والقرآن الكريم نزل باللسان العربي وإذا كان من عادتهم أنهم يؤكدون الكلام بالقسم صار هذا الأسلوب جارياً على اللسان العربي الذي نزل به القرآن.

١٧ – أقسم بالليل وما جُمِع فيه.

لأن الليل يجمع الوحوش والهوام وما أشبه ذلك، تجتمع وتخرج وتبرز من جحورها وبيوتها، وكذلك ربما يشير إلى اجتماع الناس بعضهم إلى بعض.

١٨ – والقمر إذا اجتمع وتمّ وصار بدرًا.

١٩ – لتركبّن –أيها الناس– حالًا بعد حال من نُطْفة فَعَلَقة فَمُضْغة، فحياة فموت فبعث.

هذه الجملة جواب القسم وهي مؤكدة بثلاث مؤكدات: القسم، واللام، ونون التوكيد والخطاب هنا لجميع الناس

٢٠ – فما لهؤلاء الكفار لا يؤمنون بالله، واليوم الآخر؟!

وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله، أي شيء يمنعهم من الإيمان، وأي شيء يضرهم إذا آمنوا، قال مؤمن آل فرعون: {أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وإن يك كاذباً فعليه كذبه وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم} [غافر: ٢٨] .

٢١ – وإذا قُرِئ عليهم القرآن لا يسجدون لربّهم؟!

أي لا يخضعون لله عز وجل فالسجود هنا بمعنى الخضوع لله، وإن لم تسجد على الأرض لكن يسجد القلب ويلين ويذل، إن كان الأمر كذلك فأنت من المؤمنين {إذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً} [الأنفال: ٢] . وإن لم يكن قلبك كذلك ففيك شبهٌ من المشركين الذين إذا قرىء عليهم القرآن لا يسجدون، ومن علامات الخضوع لله عز وجل عند قراءة القرآن أن الإنسان إذا قرأ آية سجدة سجد لله ذلاً له وخضوعاً، وقد استدل بعض العلماء بهذه الآية على وجوب سجود التلاوة. وقال: إن الإنسان إذا مر بآية سجدة ولم يسجد كان آثماً. والصحيح: أنها ليست بواجبة وإن كان هذا القول أعني القول بالوجوب هو مذهب أبي حنيفة واختيار شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، لكن هذا قول مرجوح، وذلك أنه ثبت في الصحيح عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أنه خطب الناس يوماً فقرأ سورة النحل فلما وصل آية السجدة نزل من المنبر فسجد، ثم قرأها من الجمعة الثانية فمر بها ولم يسجد فقال رضي

الله عنه: إن الله لم يفرض علينا السجود إلا أن نشاء وكان ذلك بمحضر من الصحابة - رضي الله عنهم - ولم يُنكر عليه أحد.

٢٢ – بل الذين كفروا يكذبون بما جاءهم به رسولهم.

٢٣ – والله أعلم بما تحويه صدورهم، لا يخفى عليه من أعمالهم شيء.

٢٤ – فأخْبِرْهم –أيها الرسول– بما ينتظرهم من عذاب موجع.

٢٥ – إلا الذين آمنوا بالله، وعملوا الأعمال الصالحات، لهم ثواب غير مقطوعٍ؛ وهو الجنّة ، فالجنة الأجر فيها دائم، {ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً} {مريم: ٦٢} .

{إلا} هذه بمعنى لكن ولا تصح أن تكون استثناء متصلاً، لأن الذين آمنوا ليسوا من المكذبين في شيء، بل هم مؤمنون مصدقون، وهذا هو الاستثناء المنقطع، أي إذا كان المستثنى ليس من جنس المستنثى منه فهو استثناء منقطع وتقدر {إلا} بـ (لكن) أي لكن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجرٌ غير ممنون.

[مِنْ فَوَائِدِ الآيَاتِ]

- خضوع السماء والأرض لربهما.
- كل إنسان ساعٍ إما لخير وإما لشرّ.
- علامة السعادة يوم القيامة أخذ الكتاب باليمين، وعلامة الشقاء أخذه بالشمال.